

الفصل الحادي عشر

التدريب على «القصرية» أو «النويّة»

كفى حفاظات

في رحلة تبشيرية لأمريكا الوسطى، اندهشنا من تعود هنود المايا البدائيين على عدم استخدام الحفاظات مع الرضّع قبل حملهم على ظهورهم في الجراب. جميع الأطفال هناك يعرفون كيف يستعملون القصرية «النويّة». بعدما جربنا نفس الشيء بمفردنا وبعد مزيد من الملاحظة، اكتشفنا أنّ الطفل ينفر بالفطرة من قضاء حاجته في الكفولة (وهو ما نسميه بالعامية: أن يعملها على نفسه). فيعيد الوالدان تدريبهم ويجبرانهم على التبول في ملابسهم الداخلية. كذلك يحتجّ الطفل بالفطرة على التبرز في ملابسه؛ فيرفس و«يتخشّب» ويشتكي. صارت زوجتي حسّاسة للإشارات التحذيرية (بعد تغيير ١٧,٣١٦ كفولة لأولادي الثلاثة الأوائل)، فأجرت هذه التجربة على مولودنا الجديد. عندما أحسّت بأنّ الطفل كان على وشك التبول، ذهبت إلى المرحاض ووضعت الصغير عارياً على ساقها العاريتين المنفرجتين في وضع الجلوس. في بادئ الأمر، كنا نستعين بالماء الدافئ لتشجيعه على التبول. ولما كان الطفل يبدأ التبول، كانت تقول: «بييه». وفي أحيان أخرى، كانت تخطيء تفسير الإشارات ويبدأ الطفل يتبرز، فكانت تسرع بالطفل إلى الحمام ليكمل قضاء حاجته فوق المرحاض،

بينما تردد على مسمعه أكثر من مرة: «كاكا». وحتى بعد انتهاء الطفل من تبرزه، كانت تبقيه على «القصرية» لتدعيم التدريب. فتعود الطفل على ربط الكلمة المنطوقة بالوظيفة العضلية (الإخراج والتبول). وتفوقوا جداً في التدرّب على الأمر المنطوق لدرجة أننا كنا نحترس من نطق هاتين الكلمتين في غير أوانهما.

لقد قالت بعض الأمهات بعدم تصديق: «أنت التي تدرّبت على استعمال القصرية، لا الرضيع». لكن كما تعرف الأم أن رضيعها جوعان أو نعسان، يمكنها أن تلاحظ إذا كان يريد الجلوس على «القصرية». حتى الرضيع ابن الثلاثة أسابيع يفعل كل ما بوسعه للإعراب عن حاجته.

كانت حماتي تشك في صحة ذلك حتى قالت لها زوجتي ذات يوم: «أوقفني السيارة عند المحطة القادمة، فالرضيع يريد أن يجلس على قصريته». وفي خلال دقيقة واحدة، اقتنعت حماتي عندما رجعت ديبى مع رضيعنا الصغير بعد قضاء حاجته.

صار حمّامنا الملاذ الأخير للأمهات المؤمنات بتدريب الأطفال على استعمال «القصرية». وكم من مرة رفعت بناتنا الصغار أعينهن في خجل من جمهور المتفرّجين المندهشين الذين يحومون في حمّامنا الكبير.

لكن لا ينبغي جعل الطفل يجلس لفترات طويلة منتظراً قضاء حاجته في «القصرية»، إنّما يتم تدريبه على ذلك دون مضايقة له.

وهكذا يتعوّد الأطفال سريعاً على استعمال القصيرة كل ساعتين بانتظام، أو على حسب فترات النوم والأكل. لقد نجح آخرون غيرنا أيضاً في تدريب أطفالهم.

عليك بالخرطوم

كان لصديق وجار عزيز علينا ولد ضخيم عمره ثلاثة أعوام، يجلس خارج البيت ويدق المسامير بشاكوش (لجذب الانتباه) ثم يتبرّز في كفولته. فاقترحت أن الوقت قد حان للتحدث مع الطفل بصراحة عن الضرر الذي يعود على البيئة بسبب كمية المخلفات البلاستيكية المكثّسة التي تُلقَى كل يوم. فوضّح الأب أنه لا يريد أن يشعر ولده بالذنب أو يخنق شخصيته الناشئة. وطبعاً أنا أقدر قلقه، لأنني رأيت آباءً غير صبورين ومتوترين يُلجّون الضرر العاطفي بأطفالهم من خلال الإهانات اللفظية. لذلك، اقترحت تدريباً عملياً.

أولاً، أشرت عليهم أن تأخذ أمّه، التي كانت مشغولة بالأطفال الآخرين، بضعة مرات في اليوم وتتلطّف معه في الحديث، ثم تضعه على السرير، وتخلع عنه حفاظته المتسخة، وتمسحه بقماشة دافئة، ثم تدلكه بمستحضر طبّي على المواضع المسحوجة، وبعد ذلك تلبّسه حفاظة ناعمة جديدة. كان التبرّز في ملابسه الداخلية فرصة لشد انتباه أمّه إليه وحده. مفهوم طبعاً أن الطفل غير مذنب أو مستحق اللوم في هذه المسألة، إنما كل ما في الأمر أن تصرفه كان

يسبب شيئاً من الإزعاج لأمه، أمّا هو فلا بدّ أنه أحبّ الموقف وكان يجده أبرز حدث في يومه.

لذلك كان اقتراحي أن يوضّح الأب للولد أنّه الآن رجل كبير ولذلك لن يُعد يُغسل في البيت. أيضاً أن رائحة برازه صارت سيئة جداً بحيث لا يمكن مسحه بمناديل الأطفال. ومن الآن فصاعداً، سيتم غسله خارج البيت بخرطوم الحديقة. وفي كل ذلك لا يُوجّه اللوم إلى الطفل، إنما يُؤخّذ ذلك فقط على أنّه تغيير في طريقة تنظيفه بسبب سنّه المتقدّم. ولما تبرّز في الحفاضة المرة التالية، أخرج الأب وغسله بمرح وبعدم اكتراث. ومع برودة الخريف وماء البئر البارد، لا أذكر إذا كان أخذ غسلة ثانية أم لا، لكن بعد ذلك بأسبوع أخبرني الأب أنّ ابنه صار يذهب إلى «القصرية» بنفسه. تأمل الطفل البدائل واختار أن يغيّر أسلوب حياته. ومنذ ذلك الحين، تلقّى كثيرون غيره نفس المشورة مني، فأقلعوا عن عاداتهم القديمة في أقل من ثلاث غسلات.

منافع حلوة

عندما تم غسل طفل ابن ثلاثة أعوام بالخرطوم بعد التبرّز في حفاضته، أصيب بصدمة، وصرّ على أسنانه، لكنه تكيف مع الوضع الجديد. وعندما تأكّد للوالدين أنهما يتعاملان مع فتى صلب لا يلين، بحثا عن حل آخر. وفيما واصلوا غسله بالخرطوم، أدركت الأم أنّ ابنها الصّغير لم يُرد أن يكبر بسبب تدليلها له، حيث كان طفلها

الأخير. وطبعاً استمتع هو بدور الطفل الرضيع بقدر ما تمتعت هي بذلك.

ونظراً لوعي هذين الوالدين لحاجات أطفالهما الغذائية، لا يقدمان لهما الكثير من الحلوى. من ثمّ كانت مناسبات تقديم الحلوى النادرة متعة حقيقية. أمّا هذا الطفل الصّغير فمع كونه متقشفاً صبوراً على المشقات الجسمانية، كان يحب الحلويات أيّما محبة. لذلك قالت الأمّ الحكيمة بابتهاج للولد: «يا بُنيّ، ماما قد قرّرت أنّك لست كبيراً بقدر كافٍ لأكل الحلويات، لذلك لن يُسمح لك بأي حلويات حتى تكبر قليلاً وتوقف عن التبرّز في ملابسك». لمدة أسبوع تقشّف الولد وصبر على حرمانه من الحلويات مثلما فعل مع الخرطوم .. حتى جاء يوم الخبز الفرنسي. فنظراً لعدم تناولهم الشربات مع ذلك الخبز، كان يُسمح لهما بملعقة واحدة من السّكر البودرة فوق الخبز المحمّص. بعد مراقبة الأطفال الآخرين وهم يحصلون على السّكر البودرة، قال ذلك الصبي البائس إلى أمه: «أنا أحبّ السّكر البودرة على خبزي الفرنسي كثيراً». فقالت أمه: «أنا أعلم ذلك، لكنك لست كبيراً بقدر كافٍ». بعد إفطاره البسيط الخالي من الخبز الفرنسي، نزل ودار حول المائدة إلى أمّه، وأعلن برزانة عن قراره الثوري المصيري: «يا ماما، أنا مستعد أن أتوقّف عن لبس الحفاضة. من فضلك اخلعيها». وكانت تلك نهاية المشكلة. فمن تلك اللّحظة صار يذهب إلى المرحاض بنفسه. وبعد ذلك بأسبوع، صعد الرّجل الصّغير، الذي صارت شخصيته أكثر

انضباطاً، إلى المنضدة وجلس في بنطلون جاف ليتناول خبزه الفرنسي مكللاً بملعقة السكر البودرة.

ملحوظة للإنذار

لا التبول في السرير ولا التبرز في الكفولة من القضايا الأخلاقية أو الخلقية. إنما هي وظيفة فيزيائية طبيعية. لا تدع كبرياءك تدمر طفلك. مهما زاد خجلك أو إحراجك، لا تضع طفلك تحت ضغط عاطفي. إنه حصيلة تدريبك وتكيفك.

فإذا كان طفلك الأكبر سنًا يبلى سريره في نومه، فلتفهم أن ذلك عمل لا إرادي ولا يمكن تصحيحه بالطرق المذكورة أعلاه، ولا هي مشكلة سلوكية يمكن معالجتها بالتأديب. فيجوز أن تكون المشكلة جسمانية أو عاطفية. لكن بصرف النظر عن السبب، اشترِ مجموعة من الملاءات البلاستيكية وعلم الطفل أن يغير مفرش سريريه الخاص. لا تخرجه أبداً ولا تُشعره باللوم.

وإذا ظننت أن السبب عاطفي، انظر داخلك بحثاً عن المشكلة وعدّل من سلوكك وأفعالك معه. وسينمو الطفل وينضج في جو من الحب والأمن.